ISSN: 1112- 7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
مجلد: 14 عدد: 01 مارس 2019
ص.ص. 195 . 214
النسب عند ابن خلدون: دوره وأهميته في تنظيم المجتمع

النسب عند ابن خلدون: دوره وأهميته في تنظيم المجتمع القبلي

ربيع زمام[1]، محمد حمداوي[2]
1ـ جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم،
rabie_e@outlook.fr
2ـ جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم،
h.alahmadi1357@gmail.com
تاريخ الإرسال:01 / 11/ 2018؛ تاريخ القبول: 09/ 12/ 2018

Descent according to Ibn Khaldun : his role and importance in organizing the tribal society

ZEMMAM Rabie ; HAMDAOUI Mohamed

Abstract: If modern societies are based on political, legal, administrative and citizenship values, traditional Arab societies have been based on descent ones, which is a key and fundamental input towards understanding the social and political structure of tribal societies by being an important element of individual membership within the group and its affiliation to it within the frame of social identity claiming, as well as the descent, whether imaginary or real is conceived as a an axis of unity and solidarity, through which social relations and links between individuals are established, and accordingly the roles functions and positions are determined as it was handled by Ibn Khaldun.

Key words: Linage; Pure; Ibn Khaldoun; Nobility; Assabiya.

الملخص: إذا كانت المجتمعات الحديثة قائمة على أساس الروابط السياسية والقانونية والإدارية وقيم المواطنة، فإن المجتمعات التقليدية العربية كانت قائمة على أساس النسب، والذي يعتبر مدخلا رئيسيا ومتغيرا أساسيا لفهم البنية الاجتماعية والسياسية للمجتمعات القبلية، من خلال كونه عنصرا هاما لعضوية الفرد داخل الجماعة وانتسابه وانتمائه لها في إطار تحصيل الهوية الاجتماعية، كما يعتبر النسب سواء كان وهميا أو حقيقيا محور تماسك الجماعة وتضامنها وترابطها، فمن خلاله تنشئ العلاقات والروابط الاجتماعية بين الأفراد، وبناءا عليه تتحدد الأدوار والوظائف والمكانات حسب ما أشار إليه ابن خلدون.

الكلمات المفتاحية: النسب، الصريح؛ الشرف؛ ابن خلدون؛ عصبية.

مقدمة:

إن الدارس للتراث الفكري والعلمي، الذي خلفه ابن خلدون، حول طبيعة النظم الاجتماعية للمجتمعات القبلية، كالعرب أو من في معناهم من الأمم، يدرك جيدا الأثر البالغ، والدور الهام الذي لعبه النسب في فهم الأساس الذي تقوم عليه هذه المجتمعات، حيث يعتبر النسب مدخلا هاما لفهم العديد من الظواهر الاجتماعية في المجتمعات القبلية وتفسيرها وتحليلها.

وقد بين ابن خلدون هذا الأمر في العديد من المواضع، سواء في **المقدمة** التي خصص فيها فصولا للنسب، أو من خلال ما أشار إليه في كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن

عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، حيث أن وظيفة النسب، حسب ابن خلدون، لا تقتصر على الانتساب أو الانتماء لجد أو أب معين، أو ما يترتب عنه من قرابة أو صلة دم بل تتعدى ذلك، في هذه المجتمعات، إلى تحصيل مجموعة من العلاقات والروابط الاجتماعية والسياسية، كما يلعب النسب دورا هاما في تقسيم الأدوار، واكتساب المكانات الاجتماعية في الأنظمة القبلية، وهو ما دفعنا إلى التساؤل حول ماهية النسب حسب منظور ابن خلدون، ودوره وأهميته في تنظيم المجتمعات القبلية، وفي تشكل العصبية التي هي مصدر السلطة السياسية داخل القبيلة.

مفهوم النسب :

قبل تحديد مفهوم النسب عند ابن خلدون، سوف نتطرق إلى تحديده لغة، كما ورد بدلالته أو لفظه عند بعض النسابة واللغويين العرب، واصطلاحا عند أهل الاختصاص في العلوم الاجتماعية.

أـ النسب لغة :

يقال في استخدام لفظة النسب: النَّسَبُ نَسَبُ القرابات، ويقال: هو واحد الأنساب. وعند **أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن سيده المرسي**، فإن النِّسْبَةُ والنُّسْبَةُ والنَّسَبُ هي القرابة، وقيل: النسب هو في الآباء خاصة، وقيل النِّسْبَةُ مصدر الانتساب، و النُسْبَةُ: الاسم. وفي كتاب **التهذيب**، فإن النسب يكون بالآباء، ويكون إلى البلاد، ويكون في الصناعة.

وعن **أبي زيد الأنصاري**: يقال للرجل إذا سئل عن نسبه: اسْتَنْسِبْ لنا أي انتسب لنا حتى نعرفك. ونَسَبَهُ يَنْسُبُهُ ويَنْسِبُهُ نَسَبًا: بمعنى عزاه. ونَسَبَهُ بمعنى سأله أن يَنْتَسِبَ. و نَسَبْتُ فلانا إلى أبيه أَنْسُبُهُ وأَنْسِبُهُ نَسَبًا إذا رفعت في نسبه إلى جده الأكبر. ويقول **الجوهري**: نَسَبْتُ الرجل أَنْسُبُهُ، بالضم، نِسْبَةً و نَسَبًا إذا ذكرت نَسَبَهُ، وانْتَسَبَ إلى أبيه أي اعْتَزَى (ابن منظور، دون سنة نشر: ص755). وناسبه: شَرِكَهُ في نسبه. والنَّسِيبُ: المناسبُ، والجمع نُسَبَاءٌ و أَنْسِبَاءٌ، ؛ وفلان يناسب فلانا ، فهو نَسيبه أي قَريبه. و تَنَسَّبَ: أي ادعى أنه نسيبُك. وفي المثل: القريبُ من تَقَرَّبَ ، لا من تَنَسَّبَ. و رجل نَسِيبٌ مَنْسُوبٌ: ذو حَسبٍ ونَسبٍ.

والنَّسَابُ هو العالم بالنَّسَبِ، وجمعه نَسَّابُونَ، وهو النَّسَّابَةُ. وفي حديث لأبي بكر رضي الله عنه وكان رجلا نسَّابةً ؛ النَّسَّابَةُ : «البليغ العالم بالأنسابِ» (ابن منظور، د ت: 756).

وقد ورد في **معجم المنجد** للغة العربية عن تعريف النسب على أنه جمع أنساب أي أصل أو أساس، و مَحْتِد: شخص كريم النسب، وسلسلة تتابع الأنساب في الأسرة الواحدة أو العرق الواحد: خالص النسب. وشجرة النسب: تسلسل أجداد أسرة، شجرة عائلة، وشريف النسب: كريم الأصل، وقرابة نسب : قرابة عصبية، قرابة تقوم على الانتماء إلى أسرة واحدة أو الانتساب إلى بني فلان، إلى جد واحد. ونسيب جمع أنسباء: قريب ذو نسب، ورجل نسيب: شريف معروف نسبه، وحسيب نسيب: ذو حسب ونسب (المنجد في اللغة العربية المعاصرة، 2008: 1402-1403).

والنسبة إلى الشيء هي صلته به ، وتكون لغويا بإضافة الياء إلى لفظ الشيء المنسوب إليه على هذا النحو: بدو/ بدوي، حضر/ حضري، ..الخ، كما يعبر بالانتساب إلى الشيء عن صلته به فيقال : الانتساب إلى القبيلة أو العرش أو العائلة أو الحرفة أو الصناعة، كما يكون هناك انتساب إلى الوطن أو المدينة. أما الانتساب بالبنوة فيكون على نحو فلان بن فلان أو هؤلاء أولاد فلان حسب اللسان الدارج في بلدان المغرب العربي (الشريف كمال دحومان، 2013: 13).

ب ـ النسب اصطلاحا :

من الناحية الاصطلاحية ، فإن النسب ، كما ورد في **أبجد العلوم** ، هو علم يتعرف منه على أنساب الناس ، ومعرفة النسب مندفع إلى مكارم الأخلاق، فمتى عرف الإنسان في أصله شرفا وصلابة عود ومنبتا طيبا، أنف عن تعاطي الدنايا، وابتعد عن الرذائل، حفاظا على سمعته وسمعة عائلته وعشيرته وقبيلته.

والنسابة ملزمون بتحري الحقيقة وتأكيد النسب على حقيقته مهما كان وضيعا أو شريفا مع الأمانة والصدق في العمل على حفظ الأنساب، وتعرف أنساب العرب على ستة طبقات: شعبة، قبيلة، عمارة، بطن، فخذ، فصيلة (الشريف كمال دحومان، 2013: 14).

ويعرف النسب أيضا على أنه رباط يشد المنحدرين من سلف واحد، أو هو الرباط الذي يميز بين الفرد المنتمي إلى جماعة قرابية عن باقي الأفراد الآخرين، من خلال انحداره وراثيا و دمويا من نفس الجماعة.

ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من النسب، هي كالتالي:

النسب الأمومي: وهو نسب ذو انحدار أحادي أنثوي، بمعنى أنه النسب الذي ينطوي على روابط تربط الفرد بأسلافه عن طريق أمه.

النسب الأبوي: وهو نسب ذو انحدار أحادي ذكوري، بمعنى أنه النسب الذي يربط الفرد بأسلافه عن طريق أبيه.

النسب الثنائي: وهو النسب الذي يربط الفرد بأسلافه عن طريق أمه وأبيه معا، بمعنى انتسابه إلى جماعتين قرابيتين من جهة الأم، ومن جهة الأب (معن خليل عمر، 2004: 152-153).

ويعرفه **قاموس علم الاجتماع** بأنه رابطة تنشأ منذ الولادة، ويتنوع النسب بحسب أنظمة القرابة. فمنها النسب الأحادي أي ذو انحدار أبوي أو أمومي فقط ، ومنها ما هو ثنائي النسب أي يكون الانحدار الانتسابي للفرد فيه من جهة الأب و الأم معا (André Akoun, Pierre Ansart, 1999 : 117).

وكثيرا ما يشير مصطلح النسب إلى القرابة الأغناتية، أو الانحدار الخطي الذكوري، وهو النموذج السائد والمهيمن في أنظمة القرابة العربية. ومع ذلك يمكن تعريف النسب، في نفس السياق، على أنه يمثل علاقات القرابة أو روابطها الصريحة أو الوهمية، أو هو باختصار كل شكل من أشكال الانتماء والانتساب، كالانتساب إلى جماعة اجتماعية معينة، أو مهنة، أو مدينة، أو حزب معين (Pierre Bonte et autres, 2001 : 91).

ج ـ مفهوم النسب عند ابن خلدون :

إن ابن خلدون لا يربط العصبية بالنسب، بمعنى القرابة الدموية ربطا مطلقا، فهو يرى بحسب محـمد عابد الجابري، أن العصبية هي نتيجة ما يسميه بـ «ثمرة النسب»، وليست نتيجة النسب نفسه: «وإذا وجدت ثمرات النسب فكأنه وجد»، وهو يعني بثمرة النسب فائدته، أي «هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة» وانطلاقا من هذا فإن ابن خلدون لا يربط العصبية بالنسب، بل بالتماسك والتضامن الاجتماعي الحاصل بسببها.

ويعتبر ابن خلدون أن مسألة النسب بمعنى انتماء جماعة إلى جد مشترك هو «**أمر وهمي لا حقيقة له**» (محمد عابد الجابري، 2014: 171).

وهكذا يمكن القول بأن النسب عند **ابن خلدون** لا يعني بالضرورة القرابة الدموية، بل إنه فقط «**العلامة المميزة للجماعة**»، أو بمعنى آخر الانتماء الفعلي إلى جماعة معينة والتي من خلالها يمتلك الفرد هوية اجتماعية ضمن إطار الجماعة (محمد عابد الجابري، 2014: 172).

أنواع النسب عند ابن خلدون :

أـ النسب العام :

وهو ذلك النسب الذي يشكل العصبية العامة للقبيلة، والذي تدخل ضمن إطار تشكيله مجموعة من العصبيات الفرعية، والتي تتمثل في روابط القرابة البعيدة الصريحة أو الوهمية، وروابط الحلف والولاء. في حين يعتبر اتساع دوائر القرابة والنسب، أو بعدها عن النسب الخاص، من بين الأمور التي تتسبب في إهمال أو ضعف أواصر هذه الروابط الاجتماعية، حيث يقول ابن خلدون: «إذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل به

الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها، وإذا بعد النسب بعض الشيء فربما تنوسي بعضها ويبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه، فرارا من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه.ومن هذا الباب الولاء والحلف ..» (عبد الرجمن بن خلدون، 2005: 106).

إن النسب القريب يشكل قاعدة النسب البعيد، ويقوم على أساس ذلك الحلف والولاء، وإذا كان يتصور أن بعد النسب يشكل عصبية ضعيفة غير قادرة على المدافعة أو المطالبة، فإن هذه العصبية قابلة للاشتداد بالدعوة الدينية الخادمة لصالح الجماعة المكونة من الأقارب والقابلة للتحول إلى عصبية عامة قائمة على النسب البعيد.

ب ـ النسب الخاص :

وهو ذلك النسب الذي يدخل ضمن تشكيله القرابة الأقرب دما ولحما، كالعائلة وأبناء العمومة أو أبناء البطن أو العرش الواحد، والتي تعتبر عصبيات خاصة تندرج ضمن العصبية العامة للقبيلة، يقول ابن خلدون في هذا الشأن: «اعلم أن كل حي أو بطن من القبائل، وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام، ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة، هي أشد التحاما من النسب العام لهم، مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو إخوة بني أب واحد، لا مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين، فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص، ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 106)، حيث تزداد شدة الاتحاد والالتحام بالنسب، في نظر ابن خلدون، كلما كان قريبا، بمعنى أنه كلما تقلصت دوائر القرابة والنسب زاد ذلك في شدة العصبية، وفي قوة الالتحام والتماسك داخل العصبية الواحدة، يقول ابن

خلدون: «والنعرة تقع من أهل النسب المخصوص و من أهل النسب العام إلا أنها في النسب الخاص أشد لقربة اللحمة» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 106).

إن النسب الحقيقي هو ذلك الانتماء الفعلي إلى جماعة معينة والمعاشرة لها وربط مصالحها بها والدفاع عنها وجلب المنافع لها، وواضح أن النسب مهما كان بعيدا إلا أنه يضم النسب القريب مما يجعل العصبية الخاصة كفاعلية ونشاط للجماعة المكونة من الأقارب والقابلة للتحول والتوسع إلى عصبية عامة قائمة على النسب البعيد.

ج ـ النسب الصريح :

إن النسب الصريح إنما يكون للمتوغلين في البوادي سواء من جنس العرب أو غيرهم، ذلك لما اختصوا به من شدة العيش وصعوبته وامتهانهم للرعي، حيث يقول **ابن خلدون** في هذا الشأن: «أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 104)، وقد اعتادوا على هذا النمط من العيش وألفوه، وتربوا عليه جيلا بعد جيل حتى جبلوا عليه، وتطبعوا بطباع بيئتهم القاسية. وكما يقول ابن خلدون: «فالإنسان ابن عوائده ومألوفة لا ابن طبيعته ومزاجه» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 101)، ولذلك كانوا من أكثر الأمم قوة وشدة وبأسا، ونظرا للظروف المعيشية الصعبة والأماكن الوعرة التي يعيشون فيها، فإنه لا أحد ينازعهم أرضهم أو أحوالهم وممتلكاتهم، وبسبب بعدهم أيضا عن المدائن والحواضر والأمصار، وعدم اختلاطهم بغيرهم، حفظت أنسابهم وبقيت صافية نقية، فالحياة البدوية تحافظ على النسب بسبب الاعتزال الذي تتميز به، وبالتالي تكون العصبية أقوى لأنها عصبية قرابة ونسب. أما الحياة

الحضرية فإن النسب فيها يفقد صراحته وبالتالي تفقد العصبية بعضا من قوتها (زينب محمود الخضيري، 1998: 165)؛ و في هذا الشأن يقول **ابن خلدون** : «واعتبر ذلك في مضر وقريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع، وبعدوا من أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والجيوب، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة، لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيها شوب» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 105).

د ـ النسب المختلط :

يرى ابن خلدون أن العرب، الذين استقروا بالتلال وبمواطن العيش والرعي الخصيب، اختلطت أنسابهم وتداخلت مع قبائل أخرى أو أمم أعجمية، ذلك لما يحصل من نزوع للناس على أماكن العيش الطيبة والمراعي الخصيبة، حيث يقول في هذا الشأن : «وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش كحمير وكهلان، مثل لخم وجذام وغسان وطيء وقضاعة وإياد، فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم، ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعرف، وإنما جاء ذلك من قبل العجم ومخالطتهم» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 105).

ويشير ابن خلدون إلى أن الانتماء في صدر الإسلام صار ينسب للأوطان، ثم انتقل هذا الأمر إلى الأندلس، وقد عرف هذا الأمر بعد الفتوحات، حيث أصبح العرب يزيدون على انتمائهم لأنسابهم انتماءهم للأوطان أو المدن، قصد التميز، لكن كثرة الاختلاط في الحواضر والأمصار مع العجم وغيرهم أفسد الأنساب، و أدى ذلك إلى تلاشي القبائل واندثار العصبيات التي تعتبر الفائدة المرجوة من النسب.

لقد بين ابن خلدون أن النسب الصريح هو نتاج للبيئة الاجتماعية، لما اختص به بعض الأمم كالعرب عن غيرهم. كما بين العلاقة العكسية للنسب مع العمران، حيث أنه كلما اتجهنا صوب البوادي والصحاري، كلما كان النسب أقوى وأحفظ وأسلم، وكلما اتجهنا صوب الحواضر والمدن، كلما ضعف النسب وتداخل مع أنساب أخرى، بسبب الاختلاط الحاصل بين الناس في المدن. ويرى ابن خلدون أن ظاهرة اختلاط الأنساب لا تزال ممتدة من شعب لآخر وبالتحام أقوام بآخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 105).

هـ ـ النسب اللصيق :

يرى ابن خلدون أنه من بين الأمور التي تحمل على سقوط النسب الأصلي والانتماء إلى نسب آخر أو الالتصاق به، القرابة أو الحلف أو الولاء أو الجوار، أو فرار أحدهم من قومه بسبب جرم أو جناية ارتكبها، فيلجأ إلى قبيلة أخرى ليمكث معهم، ثم يدعي نسبهم بعد أن يلتحم بهم، ويصبح كفرد من أفراد تلك القبيلة تجري عليه أحكامها وأعرافها، حيث يقول ابن خلدون: «اعلم أنه من البين أن بعضا من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر، بقرابة إليهم أو حلف أو ولاء، أو لفرار من قومه بجناية أصابها، فيدعى بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته، من النعرة والقود وحمل الديات وسائر الأحوال، وإذا وجدت ثمرات النسب فكأنه وجد، لأنه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء إلا جريان أحكامهم وأحوالهم عليه وكأنه التحم بهم» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 105). ومع مضي الزمن يحمل اللصيق نسب القبيلة بعد أن يسقط نسبه الأول ويتناسى لدى أفراد القبيلة، أو بسبب مرور زمن طويل قد يخفى على أغلبهم أمر نسبه الأول، ويورد ابن خلدون في هذا الشأن ما نصه: « ثم

أنه قد يتناسى النسب الأول بطول الزمان ويذهب أهل العلم به فيخفى على الأكثر» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 105).

دور النسب :

يكمن دور النسب في نظر **ابن خلدون** في الأحوال التالية :

أـ النسب و تحصيل العصبية :

يعتبر النسب عاملا هاما في بناء المجتمعات القبلية، لكونه يساهم في تشكيل مجموعة من العلاقات والروابط الاجتماعية والسياسية، المترتبة عن القرابة أو المصاهرة أو الحلف أو الولاء، والتي تبنى في إطارها القبيلة، وتعتبر العصبية من بين أهم هذه الروابط والعلاقات، نظرا لما يترتب عنها من تماسك اجتماعي، كما أنها تدخل ضمن إطار بناء النظام الاجتماعي القبلي بشكل عام، ويقول ابن خلدون: «أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو فيما معناه» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 104)، ويقصد بذلك أن العصبية لا تشمل فقط أبناء الأسرة الواحدة الذين تربطهم بعضهم ببعض صلة القرابة والرحم فحسب، بل هي تتسع لتشمل أيضا الرقيق والمرتزقة أو من يطلق عليهم اسم المصطنعين (زينب محمود الخضيري، 1998: 161).

وتعتبر العصبية ثمرة النسب والفائدة المرجوة منه، لما يترتب عنها من التحام وتماسك أو حمية ونصرة، وسواء كان النسب حقيقيا من خلال صلة القرابة والرحم، أو كان وهميا، أي بعيدا مبنيا على اعتقادات وظنون كالانتماء لجد مشترك، فالهدف الأساسي منه هو ما يحصل من تماسك وتضامن وترابط اجتماعي، حيث يقول ابن خلدون في هذا الشأن: «.. بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما

فوق ذلك مستغنى عنه، إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام « (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 104).

ب ـ النسب و تحصيل الشرف :

الشرف الأصيل:

يكتسب الشرف والحسب بالأخلاق والخصال والفضائل الحميدة، كالشجاعة والجود والكرم، والبيت بحسب ابن خلدون هو أن يكون للرجل آباء أشراف ذوو حسب ونسب. وقد جاء في «لسان العرب» **لابن منظور،** عن البيت، أنه مما يراد به الشرف، فبيت العرب شرفها وجمعها بيوت وجمع جمعها بيوتات، وبيت من بيوتات العرب يعني الذي يضم شرف القبيلة (ابن منظور، د ت: 15). وجاء في معنى الحسب أنه الشرف الثابت في الآباء. و يورد **شمر** بن حمدويه في كتابه «غريب الحديث» ،عن الحسب، أنه الفعال الحسن للرجل ولآبائه، وهو مأخوذ من الحساب بمعنى حساب وتعداد مناقب الرجل وآبائه. ويقول المتلمس الضبعي في هذا الشأن:

ومن كان ذا نسب كريم ولم يكن له حسب كان اللئيم المذمما

بمعنى أنه لا يكفي الرجل، حتى ينال المجد والشرف، أن يكون ذا نسب فقط، بل أن يكون له ولآبائه حسب معلوم، وإلا عد ذلك فيه أقل منزلة ممن سواه من الذين توفر فيهم الشرطان، أي النسب والحسب. وفرق بين الحسب والنسب، فجعل النسب عدد الآباء والأمهات إلى حيث انتهى، أما الحسب فهو الفعال كالشجاعة والجود وحسن الخلق والوفاء وغيرها من مكارم الأخلاق والشيم الحميدة، وإنما سميت مساعي الرجل ومآثر آبائه حسبا، لأنهم كانوا إذا تفاخروا عد المفاخر منهم مناقبه ومآثر آبائه وحسبها (ابن منظور، د ت: 310-311).

ويرجع ابن خلدون معنى الحسب في البادية إلى الأنساب، والتي تكمن فائدتها وتظهر ثمرتها في العصبية، حيث يقول في هذا الشأن : «أن البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه». وكلما كانت العصبية أقوى، كلما كانت فائدتها أعظم وتزيد كثرة الأشراف فيها على فائدتها فائدة أكبر، ويبين ابن خلدون أن الشرف والحسب إنما يكونان أصليين وحقيقيين في أهل العصبية لوجود ثمرة النسب. أما فيما دون ذلك فيكون متوهما، وتختلف البيوت في الشرف وتتفاوت بتفاوت العصبية من قبيلة لأخرى (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 108)، ولا تبقى حقيقة الحسب، وأسباب الجاه وأصالة الشرف لمن فقد عصبيته، وكل ما يبقى هو الوهم بدوامه وأزليته.

فالحسب كما يفسره ابن خلدون يعود إلى الأنساب، وثمرة النسب هي العصبية، وما يترتب عليها من نعرة ونصرة، وكلما كانت العصبية فعالة وقوية، كانت فائدة النسب أوضح وثمرته أنجح، ولهذا لا تتحقق فائدة النسب بتعداد الآباء والأجداد وحسب، وإلا عد ذلك أمرا زائدا لا فائدة ترجى منه، إن لم يقترن بعصبية. ويرى ابن خلدون أن نهاية الحسب الواحد تنتهي سلسلتها الثابتة بأربعة آباء.

ويعلل ابن خلدون ذلك أن كل عنصر في هذا العالم غير ثابت وقابل للتحول والتغير، وكذلك القيم والصفات والخلال (بوزياني الدراجي، 2003: 170-171)، حيث يقول في هذا الشأن : «اعلم أن العالم العنصري بما فيه كائن فاسد لا من ذواته ولا من أحواله، فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات والإنسان وغيره كائنات فاسدة بالمعاينة، ... والحسب من العوارض التي تعرض للآدميين فهو كائن فاسد لا محالة، وليس يوجد لأهل الخليقة شرف متصل في آبائه من لدن آدم إليه، إلا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة به وحياطة على السر فيه» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 110).

ويبرر ابن خلدون نظرته حول الحسب: «أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 110) من خلال نظريته، التي يرى فيها بأن الأب الأول أو الجد الأول باني المجد يحرص ويتمسك بالخلال التي وضعته في تلك المنزلة، ثم يأتي بعده ابنه الذي سمع منه وأخذ عنه، غير أن السامع بالشيء مقصر عن المشاهد له، ثم يأتي الثالث الذي يقتصر دوره على التقليد، وليس المقلد كالمجتهد، ثم يأتي الرابع الذي يضيع الخلال بالكامل، ذلك أن الرابع إنما يضيع الحسب لاعتقاده بأن الأمر المشهور من تعظيم واحترام وتقدير الناس لهم مرتبط بنسبه، فيظن ذلك تحصيل وراثة لا اجتهاد من وجوب التحلي بالخلال الحميدة، فيضيع حسبه بينهم (بوزياني الدراجي، 2003: 172)، حيث يقول ابن خلدون: «واعتبار الأربعة من قبل الأجيال الأربعة: بان ومباشر ومقلد وهادم وهو أقل ما يمكن» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 111).

واشتراط أربعة آباء في الحسب الواحد بحسب ابن خلدون ليس مطلقا بل هو على العموم، غير أنه قد ينتهي الحسب الواحد للبيت الشريف إلى الأب الخامس أو السادس في بعض الأحيان. وقد استدل ابن خلدون، في فضل الحسب الواحد المنتهي إلى أربعة آباء، بالحديث الشريف للنبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 111).

الشرف بالمجاز :

ينبهنا ابن خلدون، في هذا الموضع، إلى أن المعنى الشائع للحسب لدى أهل الأمصار، يكمن في الخصال والخلال الحميدة للرجل، وما هو قائم به وعليه من فعل للخيرات، ويكون هذا الأمر معروفا لدى آبائه أيضا، في حين يرى هو بأن هذا الأمر ما هو إلا حسب وبيت مجازا أو وهما لا حقيقة وأصالة، لعدم توفر

شرط العصبية، والتي يرى بأنها تضعف وتتلاشى في المدن لكثرة اختلاط الأنساب، وبالتالي تضيع الفائدة المرجوة منها والتي تتحقق بوجودها كالنصرة والحمية. وقد يكون للبيت شرف حقيقي بالعصبية، لكن عوائد الحضارة والتمدن تذهب أصالة هذا الشرف، ويبقى فيما بعد على سبيل الشهرة والاعتقاد والتوهم لا على سبيل الحقيقة.

وينتقد **ابن خلدون** ما ذهب إليه **ابن رشد،** في أن الحسب إنما يكون للقوم الأقدم نزلا في المدن، واقتصاره على الأمر المشهور والشائع منه فقط، حول تعداد مناقب الآباء وسيرهم، في حين أنه أغفل، بحسب ابن خلدون، أهمية العصبية التي هي ثمرة النسب ودورها في تشكيل البيوتات الشريفة والحسب. وأرجع **ابن خلدون** ذلك أن **ابن رشد** نشأ في بيئة اجتماعية حضرية كغيره من أهل الأمصار والمدن، ولم يكن ذا عهد بأهل العصبية أو يطلع عليهم، لأنه لم ينشأ في بيئتهم ولم يعش معهم حتى يعرف أحوالهم، لذلك كان اعتقاده في شرف البيت وحسبه مقتصرا لديه على ما كان معروفا وشائعا لدى أهل المدن والحواضر من تعاقب للآباء وتعداد محاسنهم (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 108-109).

الشرف المصطنع :

يرى ابن خلدون أن أهل العصبية إذا ألحقوا بهم قوما من غير نسبهم، أو استرقوا العبيد و الموالي، فإنهم ومع مضي الزمن ينصهرون معهم بالعصبية، فيصيرون معهم كأنهم عصبة واحدة في النسب، ويستدل ابن خلدون في هذا الشأن بحديث النبي عليه الصلاة والسلام: «مولى القوم منهم» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 109)، ومع اندماجهم مع أهل العصبية يسقط نسبهم الأول، ليحملوا بدله نسب أهل العصبية التي التحموا بها، ثم إنه إذا تعددت للواحد منهم الآباء في هذه العصبية، يكون له شرف بين أهلها، غير أن شرفه يكون أدنى مرتبة من شرف

أهل العصبية الأصليين، ذلك لأن أصلهم حقيقي فيهم. كما يستطيع الموالي تحصيل الشرف ونيله أيضا، من خلال ما قد يبذلونه من ولاء واجتهاد في خدمة الدولة، ومن تعاقب لآبائهم في هذا الشأن (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 109).

ج ـ النسب و تحصيل الرئاسة :

يرى ابن خلدون أن القبيلة، وإن كانت تبدو في الظاهر عصبية لنسب عام، إلا أنها في الباطن تضم داخلها مجموعة من الأنساب الخاصة التي تشارك في هذا النسب العام، والتي تعتبر أيضا عصبيات فرعية منضوية تحت العصبية العامة. ونظرا لهذا الأمر فإن العصبية داخل القبيلة تنقسم إلى نوعين: «عصبية خاصة، وعصبية عامة». فالعصبة التي يجمعها نسب خاص أو قريب تشكل عصبية خاصة، أما العصبيات الأكثر اتساعا والأقل ترابطا، والتي يجمعها نسب عام بعيد، فهي تشكل العصبية العامة (محمد عابد الجابري، 2014: 171)، حيث يقول ابن خلدون في هذا الشأن: «إن كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام، ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة، هي أشد التحاما من النسب العام لهم، مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو إخوة بني أب واحد، لا مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين، فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص، ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 106).

وتتم الرئاسة داخل هذه البنية الاجتماعية، أي القبيلة، عن طريق صعود عصبية من بين العصبيات الفرعية الخاصة المكونة للقبيلة، تكون أقوى من سائر العصبيات الفرعية الخاصة الأخرى، تكون لها الغلبة عليهم، حيث يقول ابن خلدون: «والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم، ولا تكون في الكل. ولما كانت الرياسة إنما تكون بالغلب، وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى

من سائر العصائب، ليقع الغلب بها وتتم الرياسة لأهلها» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 106). وتحتم العصبية، حسب ما ذهب إليه **إيف لاكوست،** وجود تراتبية قوية، إذ أنها تشترط وجود زعيم، أي قائد تسانده عائلته وأعوانه. فالعصبية قوة سياسية تدفع إلى تأسيس الدولة أو الملك. ولكي توجد الرئاسة يجب أن توجد العصبية. وتشتمل العصبية القوية على عدة عصائب (زينب محمود الخضيري، 1998: 168)، ولا تتم الرئاسة للعصبية الواحدة إلا عن طريق الغلب، أي بالقوة والمال حتى تخضع لها بقية العصبيات الفرعية الأخرى. كما أن أمر الرئاسة بينهم يتناقل ويتركز بحسب الفرع الغالب والأقوى. يقول **ابن خلدون** في هذا الشأن : «و ذلك أن الرياسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه، فلا بد في الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية إذا أحست بغلبة عصبية الرئيس لهم، أقروا له بالإذعان والإتباع « (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 106). ولا تتم الرئاسة لمن قد التحم أو التصق بالقبيلة من خلال حلف أو ولاء أو لجوء لهم، ولو كان منذ زمن بعيد، حيث يورد ابن خلدون ذلك قائلا: «والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب، إنما هو ملصق لزيق، وغاية التعصب له بالولاء والحلف، وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتة» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 106). ذلك أن أمر الرئاسة داخل القبيلة يحصل لمن يكون نسبه أصيلا صريحا في أهل العصبية، ولا تكون الرئاسة لمن نسبه ليس من نسب أهلها، حيث يقول ابن خلدون : «أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 106).

ما دام مطلوبا فيمن يتولى الرئاسة على المستوى القبلي أن يكون ذا نسب صريح وذا حسب شريف وذا أتباع وأشياع، فإن منصب الرئاسة ليس بفائز به إلا من كان ذا قرابة دموية قوية، ذلك أنه حتى يكون النسب الصريح متوافرا لا بد من

هذه القرابة أن تكون ممتدة خلال أجيال من الزمن، مما لا يدع شكا لدى أفراد القبيلة في أن المؤهل للرئاسة مرتبط بالقبيلة أبا عن جد.

أهمية النسب :

يرى ابن خلدون أن الجانب الايجابي في النسب اجتماعي أساسا، من خلال صلة الأرحام وذوي القربى، حيث يستدل بحديث النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 104). ويوضح أن هذا هو الغرض والمراد من النسب، إذ أن حقيقة النسب أمر وهمي، يكمن نفعه في الوصلة والالتحام، وتكون فائدته أعظم إذا كان بينا جليا واضحا، يحرك ما هو فطري وسيكولوجي لدى الجماعة، ويحمل أفراد الجماعة الأقارب على النصرة والذود بعضهم عن البعض الآخر، وإذا كان بعيدا، وكان الهدف منه الإخبار فقط، ذهبت فائدته، وعد في نظر ابن خلدون أمرا من أمور اللهو المنهي عنها التي لا نفع فيها، وقد استدل في ذلك بالقول المأثور عن العرب: «النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر» (عبد الرحمن بن خلدون، 2005: 104).

خاتمة:

تبين لنا مما سبق أن النسب الذي ينطلق من علاقات الدم والقرابة، يتجاوز ذلك عند ابن خلدون ويتسع، ليشمل علاقات المصاهرة والحلف والولاء والإتباع وغيرها. إن الأمر عنده يبدأ بانتساب إلى جد أو أب معين، سواء كان ذلك حقيقا أو وهميا، ليتطور لاحقا إلى نظام اجتماعي وسياسي من خلال العصبية مشكلا الرئاسة على مستوى القبيلة ، وسرعان ما يتطور هذا النظام الاجتماعي السياسي، من خلال تغلبه أو ضمه لعصبيات أخرى، إلى نظام ينشد الملك أو يشكل ما يعرف بالدولة، والتي تبقى فيها الرئاسة لفرع النسب الرئيسي المشكل للعصبية الأولى داخل القبيلة، وتسقط بسقوط أو زوال عصبية هذا النسب. فاتساع النظام

الاجتماعي للقبيلة لا يلغي أو يهمل النسب الصريح، بل يبقى محورا لها وعمودها الفقري، يجمع شتاتها ويحركها، محافظا على تراتبية اجتماعية ورمزية، تترتب عنها العديد من الصلاحيات والاستحقاقات السياسية والاجتماعية.

المراجع:

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن، (2005). مقدمة ابن خلدون، القاهرة: دار ابن الهيثم.

ـ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، (دون سنة نشر). لسان العرب، المجلد الأول، ط1، بيروت: دار صادر.

ـ المنجد في اللغة العربية المعاصرة، (2008). ط3، بيروت: دار المشرق.

ـ الجابري، محمد عابد، (2014). فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، ط10، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

ـ الخضيري، زينب محمود، (1998). فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية.

ـ الدراجي، بوزياني، (2003). العصبية القبلية، ظاهرة اجتماعية على ضوء الفكر الخلدوني، ط1، الجزائر: دار الكتاب العربي.ـ

ـ دحومان، الشريف كمال، (2013). أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري، الجزائر: دار الخلدونية.

ـ عمر، معن خليل، (2004). علم اجتماع الأسرة، ط1، الأردن: دار الشروق.

- Akoun, André et Ansart, Pierre, (1999). **Dictionnaire de sociologie**, 4 ème éd, Paris: Ed. du Seuil.

- Bonte, Pierre, et autres, (2001), **Emirs et président (figures de la parenté et du politique dans le monde arabe)**, Paris : C.N.R.S.

للإحالة على هذا المقال:

ـ ربيع زمام؛ محمد حمداوي، (2019)، «النسب عند ابن خلدون: دوره وأهميته في تنظيم المجتمع القبلي» . **المواقف**، المجلد: 14، العدد: 01، مارس 2019، ص. ص. 195 ـ 214